

مؤتمر الفن واللغة

(كلية الآداب - كلية الفنون الجميلة - كلية الآلسن)

في الفترة من ٢٤ - ٢٦ مارس ٢٠١٣ م

البحث بعنوان

دور الأدب العربي في تهذيب الأخلاق والسلوك الإنساني

مقدم من

الدكتور نصر الدين إبراهيم أحمد حسين

أستاذ النقد الأدبي والبلاغة المشارك

ونائب العميد للشؤون العلمية (سابقاً)

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية معارف الوحي الإسلامي والعلوم الإنسانية

الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا

لعب الأدب العربي منذ زمن بعيد دورا فاعلا في تهذيب الشعوب عامة، والنفوس البشرية خاصة؛ وذلك عن طريق وسائله المختلفة؛ شعرا أو نثرا. وهذا التهذيب الإخلاقي، وذاك السلوك الإنساني هو الذي دفع الإنسان للبحث عن حرياته، وتصحيح المسار لدى شعوب العالم جمعاء، وهو الذي جعل الإنسان يطالب بحقوقه المسلوبة، ويعبر عن طموحه وآماله، وعواطفه الجياشة، فجاء التغيير رغبة صادقة نبع من إحساسه وشعوره بالمسؤولية أمام أمته وشعبه. وتشكلت تعبيراته الإبداعية التي رصدت لغته وفنه، ومدى تفاعله مع الحدث بأشكال مختلفة متنوعة، بل بأشكال عدة، منها التعبير شعرا أو نثرا، التعبير عن الذات عن الآمال المنشودة، والطموحات المستقبلية. وقد لعب الأدب هذا الدور منذ القدم، بل منذ عصور الأدب العربي الأولى، وبرز بصورة واضحة في أيامنا هذه، عندما وعت الشعوب إلى أن لها حقا تطالب به. وقد اتسعت صور هذا السلوك التهذيبي - منذ القدم - فتناولت جوانب شتى لعب فيها الشعر دورا لا يستهان به في تهذيب النفوس، ودفعها إلى الأمام، وشحذ الهمم، وكذلك النثر من وصايا، ورسائل، وخطبه. وعندما تتهدب السلوك الإنسانية، يتهدب كل شيء، حيث يصلح الطالح، ويقوم المعوج، وتستقيم الحياة على أحسن حال، ويعيش الإنسان معززا مكرما كما خلقه الله سبحانه وتعالى: [ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا]. بالأخلاق يحي الإنسان، وعليها يموت؛ لأنها هي التي تهذب الشعوب، والدين قائم على الأخلاق الحميدة، والسلوك المستقيم. ولذا سيأتي بحثي موزعا بين الشعر وما يحمله من معاني طريفة وحكم وأمثال، تدعو إلى تهذيب النفس، ودفع الإنسان للتفاعل مع الواقع والحياة. والنثر، وما فيه من وصايا، ورسائل، وخطب تبث الحماس في نفوس الشباب الطامح، والأمل والرجاء والسودة. وسوف نبدأ ببعض الوصايا.

أولا: الوصايا.

١-وصية أمامة بنت الحارث.

من ربات الفصاحة والبلاغة والرأي والعقل، وهي زوجة عوف بن محلم الشيباني، وكانت من النساء اللاتي عرفن بالتعقل وحسن الرأي، وقد خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم إلياس بنت عوف بن محلم الشيباني، فزوجها أبوها منه، ولما حان وقت زفافها حرصت أمها على تزويدها ببعض النصائح فقالت:

" أي بنية: إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال. أي بنية: إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكاً، فكوني له أمة، يكن لك عبداً وشيكاً. يا بنية: احملني عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكرًا، الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيّب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيّب الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدو عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتغريض النوم مغضبة، والاحتفاظ ببيتّه وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير، ولا تفشي له سرا، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سره، لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره، أوغرت صدره. ثم انقي من ذلك الفرح إن كان ترجاء، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظماً، يكن أشد ما يكون لك إكراماً، وأشد ما تكونين له موافقة، يكن أطول ما تكونين له مرافقة، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين، حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يخبر لك" ^١.

صدرت الوصية من أم مجرية للحياة، لها حنكة وخبرة طويلة أهلتها لمثل هذا العمل، وهي أولاً وآخرها تحرص على أن تحقق السعادة والهناء لابنتها، التي لا خبرة لها بتلك الحياة، وكان هدف الأم من هذه الوصية تحقيق السعادة الزوجية والسكينة والطمأنينة.

^١-أنظر: مجمع الأمثال، الميداني، ج٢، ص١٤٢، طبعة بيروت، الطبعة الأولى، دون تاريخ. وكذلك: العقد الفريد، ابن عبد ربه، ج٣، ص٢٢٣، طبعة لجنة التأليف والترجمة، الطبعة الأولى، مصر.

والوصية تعتبر دستور لأي أم تحرص على سعادة بنتها، وهي للمرأة العاقلة التي تحرص على سعادتها، وبناء بيتها على دعائم قوية، ومتينة حتى تدوم سعادتها مع زوجها أبد الحياة. وحبذا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية، وطبقنها في بيوتهن دون حساسية إذا لرأينا السعد يرفرف على بيوتهن، فهو نص حكيم من أم أفنتها تجارب السنين، أرادت أن تضمن لابنتها الهناء في بيتها الجديد " توضح لها الحياة التي لم تألفها من قبل، ثم تنتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها بعشر خصال جامعة، خلاصتها: الفناعة، والطاعة، والاعتناء بالمظهر اعتناء لا يخرج عن الحد المطلوب المعتدل، والنظافة، وحسن التدبير، والمحافظة على السر، ومراعاة حالة الزوج النفسية^٢. وإن كانت هذه النصيحة لامرأة جاهلية، إلا أنها سبقت عصرها بهذه الوثيقة، التي يجب أن تتقبلها المرأة العصرية، حتى لا تختل موازين الأسرة والمجتمع.

٢- وصية ذي الأصبع العدوانى لابنه أسيد.

كانت من عادات الجاهليين أن يهتم الذين حنكتهم التجارب، وصقلتهم الأفكار، بوضع خبراتهم وزبدة أفكارهم، ونتاج عقولهم إلى أبنائهم وقومهم، ليفيدوا من ذلك في حياتهم، ويصلوا إلى ما وصل إليه آبائهم من عز ومنعة ومجد وشرف وسؤدد. وهذه الخبرات التي يمدون بها من يريون هي الوصية التي تصاغ في جمل قصيرة محكمة النسيج، تحمل من الأفكار أغزرها، ومن المعاني أسماها وأجملها، وتنتم بالوضوح والتركيز.

ومن ثم استخدم القدماء أسلوب الوصايا لتكون دافعا للشباب، لحياة جديدة قد تكون مليئة بالمغامرات والمخاطر، فهذه الوصايا تكون نبراسا ينير لهم الطريق، ويصلح شأنهم. والوصايا يستخلصها الخطباء من تجاربهم في الحياة، وممارستهم لها، وتلك الخبرات التي توافر عليها طوال حياتهم المديدة. وهي نفع للشباب لتقويم الخلق، والخلق، وتهذيب السلوك الإنساني وتقويمه. فهذا هو ذو الأصبع العدوانى بوصي ابنه أسيدا، ويقدم له بعض الصفات الكريمة التي تقوده دون أدنى شك إلى المجد والسؤدد، فقال:

"يا بني! إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، واني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغت، فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وإبسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم، واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم

^٢ أنظر: الأدب الجاهلي، عبدالله العشري، ومحمد بدر معبدى، مطبعة المنار، عام ١٩٧٨م، الطبعة الأولى، الرياض.

ضعيفك، وأسرع النهضة في الصرخ، فإن لك أجلا لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئا،
فبذلك يتم سؤددك^٢.

إن الرجل كانت حياته مليئة بالتجارب المختلفة المتنوعة التي عاشها زهاء عمره، فتعلم منها
الكثير؛ ما ينفع، وما يضر. وتكون مثل هذه الوصايا دفعا للشباب، وتوجيههم الوجهة الصحيحة
المستقيمة، لبناء أوطانهم، وبث السلوك الحميد في المجتمع الذي يحيا فيه. ولذا كانت هذه الأمور
التي أوصى بها ذو الأصبع العدوانى أبنة أسيد ليأخذ بها، ويعتبرها نبراسا في حياته. وكان شرطه في
الوصايا أن يعيها أبنة، ويطبقها في حياته حتى يصير إلى المنزلة التي وصل إليها أبوه في حياته، من
مكانة وسيادة.

ونجد ما ذكره ذو الأصبع العدوانى يليق بصفات القائد، وما يجب أن يتمثل به الحاكم العادل. هذا وقد
عرف العرب - منذ - فجر الجاهلية كيف يختارون حكامهم، وما هي الصفات التي يجب أن تكون
لصيقة بهم، حتى يرقوا بشعوبهم ويسمو بها إلى المعالى. إذن بالخلق القويم، والسلوك المستقيم، يمكن
أن يصلح الحاكم، فتصلح الأمم، والشعوب.

ثانيا: الحكم والأمثال.

الحكم والأمثال لعبت دورا بارزا في توجيه الشباب، وحسهم على العمل والكد والمثابرة، والاجتهاد،
ودفعتهم لتحمل أنماط مختلفة من الحياة، بسلبياتها، وإيجابياتها، وحمستهم على المضي قدما في
مشوار هذه الحياة. وأتينا هنا سوف نختصر بذكر بعضها بوصفها مثالا يساعد في دفع روح الشباب
نحو التقدم والازدهار، وتحقيق الأمال والطموحات، هذا بجانب تهذيب الأنفس، وسلوكيات الأفراد.
١- قال الحماسي:

بغات الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نزور

وهذا الشعر يشير إلى النوعية، وأهميتها في حسن الاختيار، فليست المسألة في الكم، ولكن الكيف أمر
مهم جدا. ومن هنا جاءت دعوة الشباب للاهتمام بالنوعية، ولذا خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل
فيمل. فالأدب يعلم الإنسان حسن الاختيار، أي السلوك المستقيم الذي يجب أن يتبعه، ويتناسب مع
ميوله وطبعه، وحاجاته الضرورية.

٢- جاء في فصل المقال. قال طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيتك بالأخبار من لم تزود^٣

^٣ - الأدب والنصوص، محمد عثمان محمد موسى وآخرون، (الخرطوم: دار النشر التربوي، الطبعة الرابعة،
عام ١٩٨٧ م.)، ص ٤٦.

إن مصير الأيام أن تكشف للإنسان الحقائق التي خفيت عنه، أي التي كان يجهلها، ولا يعلم عنها شيئا، أو كانت غائبة عن ذهنه، أو لم يكن يفكر فيها، أو يصدق أن تحدث، أو لم يكن يتوقعها أو يحسب لها حسابا. وربما جاءت الحقيقة أو كشف الأمر عن طريق لم يكن يتوقعه، أو ينتظر أن يأتي عن طريقه. فيجب على الإنسان أن يتمالك نفسه كثيرا، ولا يحزن أبدا، فكل شيء متوقع حدوثه، فعليه أن يتعلم من الأيام.

قال أبو عبيد، قال الأصمعي: ومن أمثالهم (لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة)°.

وذلك مثل الرجل يكون الغالب عليه أفعال الأمور الجميلة، ثم تكون منه الهفوة والزلة. والمعنى من ذلك أن الكمال لله سبحانه وتعالى، فمهما يكن فالإنسان لا يخرج من دائرة أنه بشر يخطئ ويصيب، فالجواد عندما ينطلق في السباق لا يكبو، ولكن أحيانا قد يحدث وهذا الاحتمال، ونسبته لا تكاد تذكر، ولكن مع ذلك يحدث، وكذلك العالم لا يخطئ، ولكنه يهفو، أي تفوت عليه بعض الأمور، إذن من السلوك الإنساني ألا يتكبر الإنسان على أقرانه وزملائه.

قال النابغة الذبياني:

ولست بمستبق أبا لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب؟^١

أي ليس أحد يخلو من عيب يكون فيه، فإذا كان الغالب على الرجل الإحسان اغتفرت سقطته. أي إذا أنت لم تغفر لصاحبك، وتعذره فيما ارتكبه من أخطاء غير مقصودة، فسوف تخسر جميع أصدقائك وأحبائك ورفاقك. هكذا نتعلم من الأدب الأخلاق والسلوك الطيب. وهذا يتفق مع قول بشار بن برد حين قال:

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

كل امرئ معرض لأن يهفو أو يخطئ، وقد يكون ذلك عن غير عمد، فإذا كنا نعاتب أصدقاءنا على هفواتهم أو أخطائهم المرة تلو المرة، ونحاسبهم حيناً بعد حين، وإذا لم يسامح كل منا الآخر، ويصفح عنه، فإنه سيجد نفسه وحيدا، ولا صديق له في هذا العالم. ولذلك صدق قول الفرزدق حين قال:

يمضي أخوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد ذهاب المال مكتسب

^١ - فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري الأوني، تحقيق عبد المجيد عابدين، وإحسان عباس، (السودان: الطبعة الأولى، عام ١٩٥٨ م)، ص ٢٤٣.

^٢ - المصدر السابق، ص ٣٩.

^٣ - المصدر السابق، ص ٣٩.

إن أعز أمنية للمرء في حياته، الصديق الصدوق، والأخ الوفي. فإذا فقدته، فقلما يستطيع أن يجد مثله. أما المال فإنه عارية تؤخذ وتستعاد. ولهذا، فإن الحفاظ على الأصدقاء والتمسك بهم أشد حاجة من الحفاظ على المال

٣- يقول أبو الطيب المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام^٧

إذا كان الإنسان هينا في نفسه سهل عليه احتمال الهوان كالميت الذي لا يتالم بالجراحة، وهذا دفع لشعوب أن تتال حقها من الحكام الطغاة المستبدين، ودفع للشباب أن لا يصمتوا في وجه الطغاة الذين يأخذون أموال الشعوب لأغراضهم الخاصة، فالشعوب التي لا تحركوا ساكنا، وتتغافل عن حقها، تضيع حقوقها، وتتشرذ وتتسول، وتكون منبوذة من الآخر.

تريدين لقيان المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل^٨

وهو يجوز - أيضا - أن يخاطب به الشباب الذين يريدون أن يدركوا المعالي رخيصة دون أي جهد أو تعب أو مثابرة، أو دون أن يعرض نفسه للأهوال، وصروف الدهر. والمعالي لا تدرك كذلك، فإن من حاول اجتناء الشهد قاسى لسع النحل، ولا يبلغ حلوة العسل إلا بمقاساة مرارة اللسع. وهذا تحفيز للشباب أن ينهض ويعمل ويكافح ويجتهد، أو كما قال الشاعر:

وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام^٩

ويشير المتنبي، إلى غاية مهمة يجب أن يسعى إليها الشباب، وهي أن يفرق الشباب بين العلم، فالعلم مغنمة، والجهل مفسدة، وذلك حين ينشد:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم^{١٠}

إن العزائم إنما تكون على قدر أصحاب العزم، فمن كان كبير الهمة قوي العزم كان الأمر الذي يعزم عليه عظيما، وكذلك المكارم إنما تكون على قدر أهلها: فمن كان أكرم كان ما يأتيه من المكرام أعظم. والمعنى أن الرجال قوالب الأحوال، فإذا صغروا صغرت مكارمهم، وإذا كبروا كبرت مكارمهم.

٤- يقول أحمد شوقي:

^٧- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة، د.ت.)، ج٤، ص٢١٧.

^٨- المصدر السابق، ج٤، ص٤.

^٩- المصدر السابق، ج٤، ص٦٤.

^{١٠}- المصدر السابق، ج٤، ص٩٤.

فدع كل طاغية للزمان فإن الزمان يقيم الصعر^{١١}

أي أن الزمان يصلح من الميل والعوج من كبر أو غير ذلك. وكل حاكم طاغية لا بد أن يصلح حاله الزمان، وللزمان وسائل كثيرة للإصلاح. والهدف من ذلك أن يلتزم الحكام بالعدل، والمساواة، فهي المنجاة لهم من غضب شعوبهم.

يقول أحمد شوقي:

ولقد يقام من السيوف وليس من عثرات أخلاق الشعوب قيام^{١٢}

إن السيوف تقوم، إذا أعوجت، ولكن من يقوم أخلاق الرجال وقد شبوا على الفساد، والظلم، وهضم حقوق الغير. وكذلك يقول:

ودعوا التفاخر بالتراث وإن غلا فالمجد كسب، والزمان عصام^{١٣}

يشير أحمد شوقي هنا إلى عصام الجرمي، وهو رجل يضرب به المثل في الاعتماد على النفس وإبلاغها أعلى المنازل، دون أن له نسب أو حسب آخر. إذن الاعتماد على النفس فضيلة. يقول أحمد شوقي:

ولالأوطان في دم كل حر يد سلفت، ودين مستحق

واللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق^{١٤}

الأوطان لا تبني من العدم، فلا بد من الشباب أن يبذل قصارى جهدهم في بنائها، وتشييد حضارتها، وعمرانها. فالوطن دين مستحق في رقاب الشباب. ونيل الحرية من المستعمر يحتاج إلى الجهاد، والاستعداد النفسي والجسدي، وبذل النماء رخيصة من أجل الأوطان، فالتحرير من الطغاة ليس أمرا سهلا، ولعل ما يحدث الآن في كثير من البلاد العربية وغيرها لهو دليل حاسم. على ما نقول. ثالثا: الأشعار.

قال الرسول (ص): "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".^{١٥} فإذا فهمنا أن التتيم إضافة اليسير على الشيء الكثير من جنسه ليتم ويكمل، فإن هذا الحديث الشريف يفيدنا أن العرب في جاهليتهم كانوا

^{١١} -المتنبى وشوقي، دراسة ونقد وموازنة، عباس حسن، (مصر، دار المعارف، الطبعة الثالثة، مطابع دار المعارف، عام ١٩٧٦ م)، ص ٣٦٠.

^{١٢} -المرجع السابق، ص ٣٦٠.

^{١٣} -المرجع السابق.

^{١٤} -المرجع السابق.